توطئة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمد ﷺ، وبعد:

فما كانَ أحسنَها مُتعةً تلك السُّويعات التي كنتُ أقضيها مع كتاب الله تعالى ومع سُورة يُوسُفَ عليه السَّلام. ولقد كان لهذه السُّويعات ـ ومعظمها قد كان في جامعة اكسفورد بالمملكة المتحدة وفي أفنيتها الفينانة ـ سِحرٌ خاصٌّ بسبب ما كانت زُمرُ الباحثين من يهود يَغدونَ ويروحون على هذه الجامعة التي نجحوا في تثبيت وجودهم فيها مرَّةً تحت ستار الذِلَّة والمسكنة ـ وهم رجالها ـ ومرَّة تحت ستار الجنسية المزدوجة وثالثة تحت ستار الدراسات اللاهوتية مسقط رأس الأناجيل التي اقتنع الغربيون بغباء أو أُقنعوا أنها في المناخ اليهودي قد نبتت. وكلما كنت أرى هذه السِّحف (جمع سِحفة) كنت أعود القهقرى إلى أيَّام يعقوب عليه السَّلام فأحاولَ أن أرى إخوة يوسف عليه السَّلام من خلال ملامح هؤلاء، وطرائق تفكيرهم، وأنماط سلوكهم. وإن لم يكن ثَمَّةَ نسبٌ بينهم إلا في الالتواء، فذلك وحدَه من خلال هذا المنظور في التذوق الجمالي للسُّورة القرآنية الكريمة «أقربُ النَّسَب».

وقد أذكى الرَّغبة (على المفعولية) في الاندفاعة نحو نصوص كتاب

الله عزَّ وجلَّ ونصوص حديث الحبيب رسولنا محمد ﷺ وروائع النصوص في لغتنا العربية المباركة المُشرَّفة تلك الدراساتُ الثَّرَّةُ التي كنت أعكفُ على متابعتها في نصوص اللغة الانجليزية على مقاعد الدراسة في الجامعة البريطانية العريقة العتيدة العتيقة. ومع علمي المسبَّق بما كانت سورة يوسف عليه السَّلام قد أثارته في نفوس الأدباء والمتذوقين في لغتنا الكريمة من مناح في التذوق والمعالجة والتحليل، إلاَّ أن المشاعرَ الدافقة النابضة بالحياة التي كانت تصاحب قراءة هذه النصوص في كتاب الله تعالى في مناخ خاص، وسياق خاص، واستعداد خاص، ظلَّت تُلحُّ على الخاطر وتكدُّه حتى كانت هذه الاستجابة المتواضعة. وهذه الاستجابة المتواضعة إنما هي في الأصل تذوق في سبيل التعلم والوصول إلى الفهم عن الآيات، ومجريات الحوادث، و«فنيَّة» السَّرد، وطريقة الحوار، وتصوير المشاهد، وتشخيص الانفعالات. فإن كانت هذه الاستجابة في الإضافة التي تُذكي العيون في رغبة معاودة قراءة النصِّ القرآني بروح تذوقيَّة وانشراح جديد، فذلك في النُّجح الذي إليه أقصد، وعليه أعوِّل (بتضعيف الواو وكسرها). وإن كانت في التقصير الذي يسعى إلى أن يُجبَر (بصيغة المجهول) فحسبُ هذه المحاولة أن كانت شرارة هذا السَّعي وبداية هذا الجبر. ويُسعدني أن أسمع وأن أرى.

وقد كان منحايَ في التذوق هو تبين مناحي «الفنيَّة» البنائية في «معمار» السورة الكريمة، وفي النَسَق القرآني الكريم، وفي تلفظ الحروف، وفي ائتلاف الروابط واختلافها، وفي تعميق الإحساس بالمقاصد والتوجيهات الربَّانية ما كان منها تعليقاً خارجاً عن النَصِّ، وما كان منها قد «وظَّفَ» النَصَّ توظيفاً يخدم «الفنيَّة» في إطار الرؤية الفكرية الشاملة. وفي ذلك كلِّه سحرٌ بياني يَعلَمُه الذين يَخبرون تذوُّق النُّصوص الرائعة ويتتبعون مساقط البلاغة فيها تتبُّعَ الماء في عروق الشجر. وقد كان انطلاقي إلى الفهم من «بنائية» النصِّ وما يحدث (بتضعيف الدال المهملة

وكسرها) به «معمارُه» وتراكيبه اللغوية «ونموُّه» من داخل. وما كانت المعلومات التاريخية التي تلقَّط نُتفها بعضُ علماء الآثار الغربيين أو سردتها أقلام كتَّاب التوراة «العِزرية» على طريقة لهم في «التهودن» لا تخفى على القارىء، لتلفتني عن استنطاق النسق القرآني الكريم والاهتداء بوحي من نوره البياني.

ولعل في هذا وحده تصحُّ أن تكون هذه المحاولة نبضاً جديداً وأفقاً مختلفاً. وفي غير ذلك ما كانت المحاولةُ لتحمل مسوِّغ «ولادتها» وكينونة وجودها بعد كلِّ هذا الغنى الحضاري الذي شهدته المكتبة الإسلامية في عصورها الزَّاهرات، ما كان منه مبثوثاً في المظانِّ الكبرى وما كان منه قد توفرَّت عليه كتبُ التفسير.

والله تعالى أسألُ أن يكون هذا الجهدُ في ميزان حسناتي يوم العرض على وجهه الكريم يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون، إلاَّ من أتى الله بقلب سليم.